العنف والعدوان كغريزة

يعتقد كثير من الناس أن العدوان عند الأطفال غريزة يجب ترويضها بأسرع ما يمكن، ويفسرون عدوان الطفل والمشكلة بلغة الميول الفطرية أو الولادية وقد يقولون: "إن العنف غريزة فيه" كما يستخدمون معيارًا لقياس سلوكه فيقولون: "إن الطفل يسلك كالحيوان تمامًا".

وتستخدم كلمة "غريزة" على نحو غير دقيق في أثناء المحادثات اليومية، فالصفات الغريزية أو الفطرية أنماط سلوكية ثابتة ومعقدة ولا تتوقف على التدريب والتعلم وتوجد لدى جميع الأفراد.

إن أفكار كهذه لا بد وأن تكون موضع تساؤل؛ لأن نظرتنا إلى الطبيعة البشرية وإلى الأعمال التي نباشرها في أثناء تعاملنا مع الآخرين، تتأثر إلى حد كبير في حال الأخذ بمثل هذه الأفكار بدافع عدواني غريزي ومفترض يوجد عند كافة الكائنات البشرية.

ويعمل العدوان في مثل هذه الحالة عمل البخار في طنجرة الضغط (حلة الضغط) فكما يوجد صمام آمان لخروج البخار يجب أن يكون لدينا مخرجًا للعدوان، فإذا خضع العدوان للكبت فستكون ضغوطًا

وتوترات داخلية خطيرة تؤدي في نهاية المطاف إلى توليد انفجار عنيف وربما هدام...

وإذا كان العدوان حاجة بيولوجية كالجوع والعطش فسيدفع الفرد للقيام بنشاط عدواني عنيف.

العنف والعدوان كعادة متعلمة

استنتج بعض العلماء من خلال دراستهم للعدوان عند بعض الأفراد والمجتمعات عدم وجود دافع غريزى للعنف عند الإنسان، فقد ينشأ الشعور بالغضب عن عمليات لا إرادية، فالعدوان عادة أو قابلية تم اكتسابها بالتعلم.

والاعتقاد السائد هنا هو أن الصفات الاجتماعية أكثر تحديدًا للأعمال العدوانية وحب القتال عند الأفراد والأمم من الصفات البيولوجية.

ويمكن طبقًا لهذا الاعتقاد من الوجهة النظرية على الأقل تخفيض درجة العدوان بين الناس وذلك بتقليل حدوث الإحباطات القاسية، وبتخفيض مكاسب العدوان إلى الحد الأدنى.

وتتوقف نتائج العنف مهما كان الشكل الذى تأخذه على العادات المكتسبة فى أثناء النمو، وعلى الصفات المزاجية التى تشكلت خلال سنوات النمو، كما تتوقف على مدى التعرض للنماذج العدوانية (كالوالدين العدوانيين) وعلى مدى التساهل أو العقاب المتبع نحو الغضب.

ومن الواضح أن الناس يختلفون من حيث الطريقة التى يواجهون

بها الإحباطات والمعوقات والحوادث المؤلمة، وإن اختلاف الناس من حيث القابلية لعمليات سلب الحساسية بالنسبة لبعض الإحباطات يؤدى إلى اختلافهم فى مدى تحمل الغضب..

وترى النظرية السلوكية أن العنف لا يورث، فهو إذن سلوك مكتسب يتعلمه الفرد أو يعايشه خلال حياته، وبخاصة فى مرحلة الطفولة، فإن تعرض الطفل لخبرة العنف، فى المراحل الأولى من حياته، فهو فى الغالب سيمارسه لاحقًا مع غيره من الناس، وحتى مع عناصر الطبيعة نباتا كانت أو حيوانًا؛ فالعنف إذن ظل أسود يلازم الإنسانية ويؤرق الناس، وما زال العنف يطرح نفسه بظله الثقيل ويبدد كل آمال البشرية فى حياة تسودها قيم المسالمة والإخاء.

فالسلوك العدوانى والعنف وانفجاج الاجتماعى يأتى من تقليد الناس المحيطين بالفرد ويعتقد أنه كلما كان النموذج ذا مركز أو مقام مهم كلما زاد احتمال إقدام الفرد على محاكاة سلوكه، فعلى سبيل المثال أن احتمال انتشار العنف الصادر من لاعب شهير فى أثناء مباراة كورة القدم إلى جمهور المتفرجين أقوى مما لو صدر هذا العنف من لاعب أقل شهرة وطالما أن هذه المحاكاة تحدث بمعزل عن العقوبة (مثال العنف)، فهذا يعنى أن الفرد قد يتعلم الكثير من الأشياء من نموذج مهم فى حياة الفرد (الأب، المعلم، ممثل مشهور، لاعب كرة مشهور) فإن احتمال إقدام الأطفال على الذين سبق أن شهدوا العنف الصادر

من الراشدين أقوى من إقدام الأطفال الذين لم يشهدوا هذا النوع من العنف.

فالعنف إذن سلوك متعلم من خلال ملاحظتنا لغيرنا من الناس وتقليدهم والاقتداء بسلوكهم، ومن خلال علاقاتنا المتبادلة معهم والتفاعل القائم بيننا وبينهم.

والذين يقولون بأن الطفل الرضيع يستخدم كل وسيلة للتعبير عن العنف مثل البكاء أو الصراخ أو الرفس، فذلك قد يكون نتيجة الرضاعة التي فيها نوع من القسوة، فلا يعطى الطفل الثدى حتى تظهر لديه حاجة شديدة إلى ذلك، وإنه وإن أعطى الثدى فيعطى لوقت قصير، لذلك عليه أن يرضع بقوة وسرعة حتى ينال حاجته وإلا فاته ذلك، وإن حدث وشرق الطفل فإن الأم تثور وتغضب، وكذلك عند الفطام فإنه يتعرض للقسوة والعنف من أجل ذلك فإن الطفل يتعلم العنف في ذلك الوقت وتظهر لديه إشارات العنف والعدوان.

إن العدوان أو العنف لدى الأفراد سلوك مكتسب متعلم من البيئة مثل الوالدين والأقرباء والمدرسة والأصدقاء والأهم من وسائل الإعلام خصوصًا من القنوات التليفزيونية والموجهة لأطفالنا حاليًا. ويدعم هذا نظرية العالم (باندورا) بنظريته التقليدية والمحاكاة والتي خلاصتها أن غالبية سلوك الإنسان مكتسب ومتعلم. وهذا يعتبر

نصيحة للوالدين ووسائل الإعلام بأن يحرصوا على أطفالنا، وعدم المساعدة في إيجاد جيل من الأطفال هم شباب الغد يتصف بالعدوانية والعنف.

فنحن نقول دائمًا: الطفل هو بالنسبة لنا بمثابة بطاقة صعود الطائرة، فنفهم سلوك العائلة من مشاهدة سلوك الطفل وبالتالي نستطيع الحكم على اتجاه وأفكار محيطه الأسري.

ولقد دلت الدراسات النفسية أن من يشاهد العنف في منزل أسرته سواء عنف لفظي، أو بدني فهناك احتمال عشر مرات أن يكون عنيفًا مع الآخرين، وكذلك مع أسرته في المستقبل، فيجب عدم التهاون في مثل هذه الأمور؛ لأن ما يمر به الطفل من خبرات في حياته هو مجموعة من القواعد تحدد سلوك الفرد في المستقبل.

ولا بد من إدراك أن البرمجة العقلية للفرد تبدأ منذ الصغر، فلقد دلت الدراسات أن ٥٠٪ من سلوك الطفل يتشكل في خمس السنوات الأولى و٥٧٪ عند إكماله لثماني سنين و٥٩٪ عند بلوغه الثامنة عشرة، فإذا وجد الطفل في بيته تشجيع على العنف والعدوان بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة فالمسئولية تقع على المحيطين به.

وهناك من يضع هذا السلوك تحت عاملين رئيسيين:

أولها: أنها عوامل وراثية مثل: ما ينقل إلى الابن من الآباء والأجداد

من صفات وخصائص وتكوينات غير ناقلات الوراثة أو الجينات. فيحدث إفرازات هرمونية وغددية، فمثلاً إذا زاد إفراز الغدة الدرقية صاحب انفعال زائد وسلوك عدواني واضح، بعكس الخمول في إفراز الغدة النخامية ليصاحبه خمول وهدوء وإن صار هناك عدوان فهو ببرود أعصاب.

٢- عوامل بيئية: وهي جميع ما يمر بالطفل من خبرات من ولادته أو حتى قبل ولادته إلى أن يبلغ. ومن ذلك ظروف التنشئة الاجتماعية، وخبرات القسوة والعنف من الوالدين أو من المحيطين بالطفل والحرمان والصد والزجر والإهمال، ولعل أهمها الحرمان العاطفي، ومن العوامل البيئية: ظروف التربية والدراسة والظروف الثقافية ومكوناتها من العادات والتقاليد والقيم والنظم واللغة المستخدمة. إذن فالتفاعل مع هذه العوامل يؤثر على الحالة النفسية للطفل مما قد يجعله عدوانيًا تجاه نفسه والآخرين من حوله.